مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية.	المجلد .5/ العــدد: 4(2021)، ص .78- 98

نشأة المدن بإفريقية عهد الامارات المستقلة

بجاية نموذجًا

The emergence of cities in Afriqiya the era of the independent Emirates Bejaia is a model

وئام السعيد
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس
wiemsayd@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021./08./.25 تاريخ القبول: .2021./10./.08

الملخص

يهتم هذا المقال بالمجال الحضري لإفريقيّة والمغرب الأوسط خلال النّصف الثّاني من القرن الخامس الهجري/11م والنّصف الأول من القرن السّادس الهجري/12م، وهذه الفترة نسميها بفترة المدن الدُويلات أو الامارات المستقلّة التي تأسست بُعيد الهجرات الهلاليّة الكبرى لبلاد المغرب، وتميّزت بطغيان نمط العيش البدوي بانتشار القبائل العربية الهلاليّة والسليميّة القادمة من مصر واستيطانها لهذا المجال الجغرافي وهو ما أكدت عليه العديد من الدراسات، ولكنّنا حاولنا في هذا العمل طرح إشكاليّة تنير جانبا مخالفا للمسألة وهو إبراز الدور الحضاري الذي لعبته المدينة في رسم ملامح التوطن في المغربين الأدنى والأوسط، وإن سيطرة القبائل على الأرياف والبوادي لم يمنع المجال الحضري من ترسيخ فكرة أن الحضارة الإسلاميّة هي حضارة مدينية قبل كل شيء وإن نشأة مدينة بجاية خير مبرر لهذا الطرح فقمنا أولا بدراسة الظرفية العامة لتأسيسها ثم درسنا خصائصها المعماريّة.

الكلمات المفاتيح

بجاية–المجال الحضري–الآثار –

Abstract

This article focuses on the urban space of Ifriqiya and the Middle Maghreb during the second half of the 5th century AH / 11 and the first half of the 6th century AH / 12. The Arab hilaleyen and Selimiye tribes coming from Egypt and their settlement in this geographical area, which has been confirmed by numerous studies But we have tried in this article to raise a problem which sheds light on a contrary aspect, which is to highlight the role played by the city in the destiny of the settlement landscape in the East and Middle Maghreb, and that the control of the tribes on the countryside and the villages did not prevent the urban aspect to show the idea that the Islamic civilization is an urban civilization above all, then we studied its architectural characteristics

Keywords:

Bejaia- urban space – architecture-

1. المقدمة

لا ريب أنّ دراسة الظاهرة المدينيّة يشكّل جزءا لا يتجزّأ من كيانها المعاش[1]، ومؤشّرا لما ستكون عليه في المستقبل، لذا يعتبر التمدّن مقياسًا للمستوى الحضاري لتاريخ الشعوب ، وشهدت إفريقيّة منذ الفترة القديمة الى الفترة الاسلامية الوسيطة تشييدا عددا هامّا من المدن على مجال شاسع امتدّ من طرابلس شرقا الى المغرب الأوسط غربا، فالمدينة هي الرقعة الجغرافيّة الحضريّة في مجال متعدّد الاوساط ولها حدود ثابتة[2]، لذا لا يمكن للنّظريات وأدبيّات الفكر مهما كانت درجة السّلامة في طرحها لدراسة المدينة الإسلاميّة، ومصداقيّة نجاحها في تلك المعالجات دون النّظر والتّفهم لطبيعة وعوامل نشوئها وتطوّر حركتها، ومن ثمّ التّفريق بين المدن القديمة التي تحوّلت إلى مدن إسلاميّة في ضوء تطورها التّاريخي، والمدن المحدثة استجابة لمهمّاتها التي نشأت من أجلها وتولّدت عن وجودها بأن تكون مدن معسكر أو مدن تجاريّة أو مدن أميريّة.. ومثل تلك المحاولة تفترض تتبّع المراحل التي نمتّ فيها ظاهرة المدينة بشكل عام، والعوامل التي أثّرت في طبيعة هذا النّمو، والاهم من ذلك علاقتها ببقية الأوساط الجغرافيّة والأنماط المعاشة المنبثقة عنها في علاقة تواصل وتكامل ونشير هنا الى مصطلح البداوة بمفهومه الخلدوني، وإن دراستنا لمدينة بجاية[3] تتنزّل ضمن هذا الطرح، حيث نشأت المدينة خلال القرن الخامس الهجري/11م في فترة تاريخيّة

---

[1] Marcais. W., (Janvier -Mars 1918), *L'Islamisme et la vie urbaine*, comptes-rendus de l'académie des Inscriptions et belles Lettres, pp. 86-100.; Bardet. G., (1941), *Problèmes d'Urbanisme*, Paris.; Marcais. G., (1946), La conception des villes dans l'islam, *revue d'Alger*, Algérie, 1 vol.; Marcais. G., (1957), l'Urbanisme musulman, *Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman*, T1, pp. 220-331.; Marcais. G., (1957), *Algérie médiévale, monuments et paysages historiques*, Arts et Métiers Graphiques, Paris.; Brunschvig. R., (1947), Urbanisme médiéval et droit musulman, *Revue des Etudes Islamiques*, Paris, pp. 127-155.; Gardet, L., (1954), *La cité musulmane. Vie sociale et politique*, Paris.; LeTourneau, R., (1957) *Les villes musulmanes de l'Afrique du Nord*, Alger.; Mumford. L, (1961), *The City in History : Its Origins, Its Transformations, and Its Prospects*, New York, ; Poete. M., (1967) *Introduction à l'urbanisme : l'évolution des villes, la leçon de l'histoire, l'antiquité*, Paris.; Lapidus. I.M, (1984), *Muslim cities in the later Middle Ages*, Cambridge University Press.; Miquel. A., (1968), *L'islam et sa civilisation*, Armand Colin ,Paris.; Sourdel. J.D., (1968), *La civilisation de l'islam classique*, Paris, Arthaud.; Cahen, C., (1982) *Introduction à l'histoire du monde musulman médiéval : VIIe–XVe siècle*, Paris, Maisonneuve, et rééd., 216 p.; Fantar .M.H, (1991), « de la cité antique à la cité arabo-islamique au maghreb », *Reppal VI*, INP, p.33.; Collectif., (2000), *Grandes villes méditerranéennes,* Ecole Francaie de Rome.; MAHFOUDH. F., (2003), Architecture *et Urbanisme en Ifriqiya médiévale (Proposition pour une nouvelle approche),* Centre de Publication Universitaire, Faculté des Lettres de La Manouba.; W.Meri, J.,(2006) Medieval Islamic Civilization an Encyclopedia, published Routledge, New York,.

حسن محمد،(1999) المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي, (جزآن)، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس1،

[2] عبد الجبار ناجي، (2001)، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، ط 1، لبنان ، ص 16 -17.

[3] Ganot. Henri., (1910), *Histoire générale de Algeria*, P. Ccrescenzo, Alger.; Bercher.L., (1922), « Le palais d'al-Mansour à Bougie », *RT,* 29, pp. 50-54.; Boissonnade. P., (1929), « Relations commerciales de la France méridionale avec l'Afrique du Nord ou Maghreb du XII^{ème} au XV^{ème} siècle, étude d'histoire économique, *Bulletin de la société de géographie*, pp.1-37.; Berque. J.,

اتّسمت أو عُرفت بطغيان مشهد البداوة مع الانتشار القبلي الهلالي والتحرّك الدّيناميكي للقبائل البربريّة في تغيير مطّرد لمواقعها، وان التّعايش الذي حصل بمختلف تجلياته يختزن حقيقة ان المدن الافريقيّة لم تنحصر قدرتها على الاستقلال بذاته باقتصادها ومجتمعها خلف أسوارها في شكل دُويلات صغرى مستمدّة ديمومتها من محيطها الريفي الخارجي، بل إن بجاية مثّلت نموذجا لولادة المدينة من رحم التّبدي، وهو تمثّل يعطي رؤية جديدة من زاوية مخالفة للعلاقة التقاطعيّة بين المدينة والبادية. إذن الإشكال الذي نطرحه قصد محاولة الإجابة عنه هو مدى إسهام صفة الازدواجيّة بين شكلي الحياة المعاشة خلال القرن الخامس الهجري/11م في إنتاج فكر حضري أدى الى بناء بجاية؟ وماهي الخصائص المعماريّة للنواة الأولى للمدينة الإسلاميّة؟

2. تغيّر موازين القوى خلال النّصف الثّاني من القرن الخامس الهجري/11م

1.2 الخارطة الجغراسياسيّة الجديدة لافريقيّة والمغرب الأوسط

إن الدّولة الإسلاميّة هي بالأساس سلالة حاكمة وحدودها شكليّة ومتغيّرة ذلك أن حدود السلطة هي جبائيّة، كما أن انحسار المجال وامتداده مرتبط بالتّقلبات السياسية بين الازدهار والتوسّع أو الوهن والتقهقر، وإن افريقية بداية من النّصف الثّاني من القرن الخامس الهجري/11م عرفت نظام حكم جديد ارتبط بتغيّر الخارطة الجغراسياسيّة والبشريّة لإفريقيّة اثر انهيار الوحدة المركزيّة للدولة الزّيريّة وتفكك مجالها التّرابي بعيد الهجرات الهلاليّة وانقسامها إلى إمارات مستقّلة بعد أن انفصلت كل مدينة بذاتها في شكل دُويلات صغرى، وانحسرت السطة الزيريّة في الحدود المجاليّة لمدينة المهدية والمنستير تحت نفوذ الأمير تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي. وفي نفس الفترة التاريخيّة منذ بداية القرن الرابع الهجري/10م حكم بنو عمومتهم أمراء بني حمّاد المغرب الأوسط وهم الأمير حماد بن بلكين(405هـ-419هـ/1014م-1028م)، والأمير القائد بن حماد بن بلكين (419-446هـ/1028-1054م)، والأمير المحسن بن القائد (446-447هـ/1054-1055م) والأمير بلكين بن محمد بن حماد بن بلكين(446-454هـ/1055-1062م)، على عهدهم كانت التخوم تمتدّ من وهران شمالا الى تيهرت جنوبا ومن الزاب شرقا الى ملوية غربا. ولكن زمن المدن الدويلات تغيرت الخارطة الجغراسياسيّة وتولى الحكم الأمير النّاصر بن علناس الذي الحكم بين (454-461هـ/1062-1088م)، وتولى من بعده الحكم ابنه المنصور بن النّاصر (481هـ/1089م

(1969), « Les capitales de l'islam maghrébin vues par Ibn Khaldoun et les deux Maqqari », *Annales islamologiques*, n°8, pp. 71-97.; Mouloud. G., (1991), *Histoire de Béjaia et de sa région: depuis l'antiquité jusqu'à 1954*, Alger, Éditions Mimouni, 2e éd.; Berque. J., (1970), « les Hilaliens repentis, ou l'Algérie rurale au XV^{ème} siècle », *Annales ESC*, 25/5, pp.1325-1353.; Bourouiba. R., (25 mars-5 avril 1974), « La vie économique et les arts à Bidjiai la Hammadide », *Actes intégraux du 8e séminaire sur la pensée islamique, Bidjiai, II, s.l.,s.d.,* pp.7-15.; Belhamissi. Moulay., (25 mars-5 avril 1974), « Le rôle de Bidjaia dans la Méditerranée aux époques hammadite, almohade et hafside », *Actes intégraux du 8e séminaire sur la pensée islamique, Bidjaia, II, s.l.,s.d.*,pp.67-79.; Marçais, G., (1975) « Bidjaya », *E.I*, nouvelle édition, Leyde, Brill, vol.I, p.1241.; Zahir. Ihaddaden., (2011) *Béjaia à l'époque de sa splendeur (1060-1555),* Alger, Éditions Dahlab. ; Mahfoud Kaddache, (2011), *L'Algérie des Algériens,* Alger, EDIF 2000., Dominique. V., (2006), *Bougie, port maghrébin*, 1067-1510, Rome, Publications de l'École Française de Rome, 795 p.

بعيزيق صالح،(2006) بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس.

498هـ/1104م)[4]، حيث قوي نفوذ هذه العائلة وسيطروا على عدّة مدن بافريقيّة في الجهة الشرقيّة مثل تونس وصفاقس وقفصة التي دانت بالولاء للحمّاديين، نتج عن ذلك امتداد حدود دولتهم من طرابلس شرقا الى الجزء الشّرقي للمغرب الأوسط غربا. خلال هذه الفترة لم تعد بعض المصطلحات والمفاهيم التي كانت تستعمل لتوصيف شكل هيمنة الدولة الاسلاميّة على المجال، متطابقة مع ما عرفته افريقية من تغيّرات كبرى على خارطتها الجغرامجاليّة، ولم يعد من الجائز الحديث عن كورة، أو رستاق، أو اقليم، أو مركزيّة العاصمة كصرح سياسي يتحكّم في الملكيّة العقّارية والتّصرف الجبائي والإداري للأرض كما كان سائدا في العهدين الفاطمي والزّيري، وتجاوز المفهوم عدّة تسميات تعترضنا في قراءة كتب الجغرافيين التي أطلقوها على لفظ السّاحل مثل بلاد السّاحل وكورة السّاحل وناحية السّاحل وجهة السّاحل وبلد السّاحل وأعمال السّاحل، ونعني بها جميعا شواطئ إفريقيّة الممتدّ من خليج الحمّامات شمالا إلى خليج قابس جنوبا وهو ما يتطابق مع كامل وسط البلاد الشّرقي. لكن إبتداءا من منتصف القرن 5هـ/11م وبما انّ العديد من الامارات تأسّست في مواقع جغرافية واتخذت من المدن الساحليّة عواصمها، فإننا ما نقترحه في ظل ذلك هو أن نصل بالمفهوم من طرابلس جنوبا الى أقصى الشّمال تقريبا إلى حدود مرسى الخرز وبونة ثمّ بجاية حيث عدّها صاحب المدارك القاضي عياض (ت543-1148) من مدن السّاحليّة لإفريقيّة في ترجمة للمعيطي (توفي سنة 432هـ/1040م)، يقول "**خرج من الأندلس "إلى ساحل إفريقيّة بجهة بجاية فاستقر هناك**"[5]، وأشار في موضع آخر أن الإمام سحنون كلّف سليمان بن عمران شيخ الحنفية بالقيروان قضاء بجاية وباجة والأربس، هذا التقسيم يدعّمه إعادة انتشار وتوطّن القبائل العربيّة الهلاليّة والبربريّة على مختلف المواقع الجغرافيّة بعد الهجرات الهلاليّة الكبرى وهو ما يحيلنا الى الكشف عن الظّرفية العامة لنشأة مدينة بجاية وتحوّل مركز النّفوذ من القلعة إليها.

يمكن القول بأن هناك عوامل مباشرة وأخرى عميقة أدّت إلى نشأتها، تتمثّل الأسباب العميقة في ما قام به شيوخ مدينة تونس بعد أن حاصرت القبائل الهلاليّة أسوار المدينة قصد السيطرة عليها على غرار ما قامت به مع بقية المدن مثل القيروان، استنجد هؤلاء بالأمير الحمادي الناصر بن علنّاس وطلبوا منه تعيين وال من قبله يدير شؤون مدينة تونس[6]، فعين عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان الذي أسّس بها دُويلة مزدهرة سنة 450 هـ[7]، وبالتالى ضمن الأمير الحمادي تبعية تونس لصالحه دون تدخله المباشر، عن طريق الوال الجديد وهو من المقرّبين إليه ومحل ثقته، وقويت شوكته بعد أن دانت له العديد من الإمارات بالمغرب الأدني بالولاء بعد انهيار الدولة الزيريّة، منها مدينة صفاقس في الجنوب الشرقي، تمكن حمّو بن مليل البرغواطي من الارتقاء الى السلطة وتأسيس إمارة مستقلّة بها، أول ما قام به هو

---

[4] النويري شهاب الدين، ت 733 هـ / 1332م، (1983) ، نهاية الأرب في فنون الأدب، (الجزء 24)، حقق حسين نصار وعبد العزيز الأهواني، القاهرة، ص217.

Idris, H.R., (1962), *La berberie Orientale sous les Zirides X-XII*ème *siècle*, Libairie d'Amerique et d'Orient Adrien-Maisonneuve, Paris, T. 1, pp. 267-282.

[5] القاضي عياض بن موسي بن عياض السبتي (توفي سنة544هـ)، (1983)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، المملكة المغربية وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ج8، ص 26.

[6] ابن عذارى عبد الله بن محمد المراكشي ت بعد 712 هـ / 1312 م، (1948)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (4 أجزاء)، بيروت – لبنان، ج4، ص315

[7] إدريس الهادي روجي، (1992)، الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12 (جزآن)، تعريب حمادي الساحلي، بيروت، ج1، ص310.

توجيه رسالة مبايعة مصحوبة بهديّة للناصر بن علناس وأبدى له الولاء والطاعة[8]، لتصبح صفاقس منذ سنة 454 هـ/1062م تابعة سياسيّا إلى دولة بني حمّاد، كما انضمت إليه حسب ما جاء لدى ابن خلدون مدينة توزر التي تقع في جنوب غرب إفريقية، حكمتها عائلة بني يملول المنفصلة عن الدولة الصنهاجيّة، استجابة لدعوة أمير صفاقس للاعتراف بسلطة بني حماد في القلعة، أيضا ساند أمراء قفصة بنو الرّند، الذين أسسوا دُويلة في غرب المغرب الأدني[9]، بنو حماد ضدّ بنو عمومتهم بنو زيري، واثر قدوم عبد المؤمن بن على إلى إفريقيّة أمر آخر أمرائها " **بالانتقال إلى بجاية بحاشيته وأهله"[10]**، ليعيّن نعمان بن عبد الحق الهنتاتي واليا على قفصة[11]. كما هاجرت إلى القلعة جموعا هامة من البشر باحثة عن الأمن والاستقرار يقول النويري "**انتقل كثير من أهل القرى والبلاد إلى بلاد بني حمّاد لحصانتها"[12]**.

بعد هذه التحالفات تجاوزت طموحات الأمير الحمّادي حدود مجاله ليتجه مشروعه الى وراثة كامل جغرافية الدولة الزّيرية من شرقها الى غربها فنجح في الاستيلاء على مدينة الأربس[13]، التي تقع في غربي جبل زغوان، بينها وبين القيروان مسيرة ثلاث أيام[14]، وحسب ابن الاثير أنّ عملية الحصار تمّت سنة 460هـ/1067م**[15]**، لكنه فشل في محاولته للسيطرة على القيروان سنة 461 هـ[16]، وتبرر المصادر ذلك بخوفه من جموع العرب التي استوطنت المدينة.

2.2 دور الحدث التّاريخي الحاسم في تأسيس مدينة بجاية: معركة سبيبة

احتدم التنافس على السلطة بين شقي الدولة الصنهاجية في المغرب الأدنى والأوسط خلال النّصف الثّاني من القرن الخامس الهجري، قام النّاصر بتأسيس حلف قبلي عتيد يضمّ العرب والبربر، وهي فروع الأثبج وعدّى وزناتة وقبائل صنهاجة بمساندة بعض المدن الدُويلات، ضدّ تميم بن المعز وحلفه المتكوّن من خليط قبلي يضم رياح وزغبة وفروعها[17]، وهذا ما أشار إليه النويري "**كانت الحرب بين الناصر ابن علناس بن محمد بن حماد ومن معه من رجال المغاربة من صنهاجة وزناتة ومن العرب عدّى والأثبج، وبين العرب وهم رياح وزغبة وسليم ومع هؤلاء المعز بن زيري الزناتي"[18]**. لتكون المواجهة بن الطرفين في موقع سبيبة. ولفهم حيثيات المرحلة، نشير الى أن الخلط من

---

[8] ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمان بن محمد ت 808 هـ / 1406 م، (1959)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (6 أجزاء)، بيروت، ص 345.

[9] ادريس الهادي روجي، نفس المرجع، ص302.

[10] الزركشي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي، ت بعد 887 هـ / 1482م، (1998)، تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية، تحقيق الحسين اليعقوبي، تونس، ص12.

[11] ابن خلدون، نفس المصدر، ص339 .

[12] النويري، نفس المصدر، ص221.

[13] ابن عذارى، المصدر المذكور، ص299

[14] البكري أبو عبيد بن عبد العزيز، ت 487 هـ / 1094 م، (1992) المسالك والممالك، (جزآن)، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، تونس. فقرة عدد 1186، ص706.

[15] ابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، ت 630 هـ/1232 م، (1983)، الكامل في التاريخ، (9 أجزاء)، تحقيق علي شيري، بيروت، ج10، ص58.

[16] ابن عذارى، ص315.

[17] عبد الحميد زغلول (1990)، تاريخ المغرب العربي الفاطميون وبنو زيري والصنهاجيون الى قيام دولة المرابطين، ج3، منشأة المعارف الاسكندرية، مصر، ص 451.

[18] النويرى، نفس المصدر، ج24، ص220.

القبائل التي خاضت المعركتين حيدران ضدّ الأمير الزيري المعز بن باديس وسبيبة ضدّ الأمير الحمّادي الناصر بن علنّاس، تنتمي جميعا الى بني هلال وبني سليم وهي من العنصر العدناني الشمالي وبصفة أدق الفرع المضري القيسي[19]، تمثل شتات من البطون والعشائر التي تربطها رابطة النسب، كانت هذه القبائل تعيش في نجد والحجاز قبل أن تنتشر في عدة مناطق من الدولة العربيّة الإسلاميّة والمتتبع لتحركاتهم يمكن أن يقسمها إلى أربعة مراحل أساسية، المرحلة الأولى هي مرحلة الجزيرة العربية ونقصد نجد والحجاز أما الثانية فهي انتقالهم إلى مصر والثالثة هي مرحلة انتشار بني هلال وبني سليم في الشام والعراق ومصر خلال الفترة العباسية والفاطمية، لتمثل المرحلة الرابعة مرحلة الانتقال إلى إفريقية وتسمّى بالتغريبة الهلاليّة[20]، فحصل لسليم الشرق ولهلال الغرب وأقامت فروع بني سليم في أرض برقة وهي هيب وأحلافها رُواحة وناصرة وغمرة بينما تقدمت قبائل دياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال نحو افريقيّة واقتسمت البلاد[21]، وفروعها هي من نسل هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس غيلان بن مضر استقروا بعد عبورهم النيل برقة ثم مضوا إلى إفريقيّة.

بسبب الهجرات القبلية الكبرى طغى على الخارطة الجغرابشريّة مشهد التّبدى. كما عرفت ديناميكية كبيرة في تحركاتها غيرت تماما الملامح القديمة للتوزّع الجغرافي القبلي لبلاد المغرب ببطونه الكبرى البتريّة والبرنسيّة وهي زناتة وهوارة وصنهاجة[22]، التي دخلت في صراعات مع القبائل الوافدة من مصر، وأدى تراجع قوتها الى انحسار مجالها، اذ يتغيّر مجال التّوطين والعمران وفق تغيّر علاقة القبيلة بمجالها من التّرحال إلى الاستقرار، وفي النصف الثاّني من القرن الخامس الهجري/11م اكتسح العنصر العربي المدن والبوادي على خلاف الفترة الإسلاميّة الأولى إذ اقتصر على بعض المراكز الحضريّة. قبُيل الهجرات الهلاليّة كان المغرب الأوسط في الأغلب ديارا لزناتة ومغراوة وبني يفرن وكان معهم مديونة ومغيلة وكومية ومطغرة ومطماطة ثم صارت من بعدهم لبني ومانوا وبني يلومي ثم صار لبني عبد الواد وتوجين من بني مادين وبجواره من جهة الشرق بلاد صنهاجة ومتيجة والمرية، وتحديدا فإن مجال بجاية وقسنطينة كانت موطنا لزواوة وكتامة وعجيسة وهوارة ثم تغلبت عليها فروع بني هلال وخاصة زغبة، التي أزاحتها رياح عن افريقية في تنافس على حيازة المواقع، إلاّ منطقة الجبال الوعرة التي حافظت

---

[19] ابن حزم أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد ت456 هـ/1063م، (1982)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، الطبعة، القاهرة، ص.273.

[20] Cahen. C., (1968), "Note sur les Hilaliens et le Nomadisme" *JESHO,* T.XI, pp. 130-133.; Idris. H.R., (1968), " l'invasion hilalienne et ses conséquences » *Cahiers de Civilisation Médiévale*, T.III, pp. 353-371.; Idris. H. R., (1968) "De la réalité de la Catastrophe Hilalienne", *Annales E.S.C*, pp. 390-396.; Daghfous.R., (1975) "De l'origine des Banu Hillel et des Banu Sulaym", *C.T.* T. XXIII, N°91-92, pp.41-68.

[21] ابن خلدون(1959) ، العبر، ج6، دار الكتاب اللبناني، ص 31.

[22] Berque. J., (1970), " Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XV^{ème} siècles d'après un manuscrit jurisprudentiel", *Annales ESC*, n° 5, pp. 1325-1353.; Berque. J., (1972), "Du nouveau sur les Banu Hilal", *Studia Islamica*, T.XXXVI, pp.99-113.; Bouzid A., (1991-1992), *Catalogue des tribus berbère « Butre » au Maghreb d'après les sources arabes médiévales*, Diplôme de recherche approfondie, sous la direction de M.Chapoutot-Remadi, Tunis.; Colin, G.S., (1975), « AL-BARANIS *», E.I,* nouvelle édition G.-P. Maisonneuve et Larose S.A., Leiden E.J. Brill, Paris, T.1, p.1068.; Idem, (1975), « AL-BUTR *», Op.Cit*, p.1390.

على نسيجها القبلي القديم فقد ذكر ابن خلكان "**أن زواوة قبيلة كبيرة بظاهر بجاية**"[23]، يبدو أنها ظلّت في مواقعها في محيط المدينة حيث نجد في" عنوان الدراية" ترجمة لعلماء تعود أصولهم لبني عيسى وبني غبرين. كما أشار البكري أن كتامة التي أسّست الدولة الفاطمية كانت مستقرة في جبل بجاية، ولم تعد مسيطرة على مواقعها الممتدة بين جنوب قسنطينة والأوراس وبونة وبجاية في عهد بني عبيد، والحقيقة أنها خسرته تباعا منذ هجرتها الى المصر مع الفاطميين.

وقد لخّص لنا ابن خلدون هذه الصراعات إثباتا للوجود، أنه بعد أن هزمت عرب بني هلال صنهاجة حاربوا زناتة " **واتصلت الفتنة بينهم..، واضطرب أمر افريقية وخرب عمرانها وفسدت سابلتها وكانت رياسة الضواحي من زناتة والبربر لبني يفرن ومغراوة وبني يمانوا وبني يلومان ولم يزل هذا دأب العرب وزناتة حتى غلبوا صنهاجة وزناتة على الضواحي افريقية والزاب وغلبوا عليها صنهاجة وقهروا من بها من البربر وأصاروهم عبيدا وخدما بباجة**"[24]. ونشير هنا الى أن باجة كانت تابعة لمرداس أحد فروع رياح. وكتب ابن عذارى بالاعتماد على أسلوب التسلسل التاريخي للأحداث "**في سنة 450هـ، خرج بلقين، ومعه الأثبج وعدي لحرب زناتة، فكسرها وقتل منها عددا كثيرا**"[25]. ما نفمهه أن صنهاجة انهزمت في المناطق الشرقيّة من افريقية لكنّها ساندت الأمير الحمّادي النّاصر في تأسيس مدينته الجديدة. أما بالنسبة لهوارة أدى التصادم مع الآخر إلى تغيير عديد فروعها لمواطنهم في المغربين الأدنى والأوسط، فالتجأت زنزفة إحدى بطونها إلى جبل زنزفة جنوب تطاوين كما قام أهل هوّارة السّاكنين بحصن المحرس ببناء سور منيع حول ديارهم خوفا من غزوات القبائل العربيّة التي أجلتهم من مواطنهم الأصليّة بقصور بني خيار الواقعة في جبل مسلاتة شرقي طرابلس، وفي سنة 452هـ/1060م وقعت بالقيروان بين العرب وهوارة حرب كان الغلب فيها للعرب[26]، كما انهزمت في قتال حصل بباب الأصرم أحد أبواب القيروان[27]، لكّن هوارة تمكّنت سنة 458هـ/1065م من أخذ القيروان من يد قائد بن ميمون الصّنهاجي بعد أن ملكها لمدّة ثلاث سنوات[28] كما حاربت أمير قفصة المعتزّ بن عبد الله الذي تغلّب حسب ابن خلدون على جبل هوارة[29]. وصولا الى منطقة بجاية حيث احتد الصراع مع زغبة. وفي مرحلة موالية خلال النّصف الثاني من القرن السّادس الهجري تقدّمت قبائل سليم الى افريقية وانحازت قبائل رياح الأثبج وعدي الى المغرب الأوسط، وهي المرحلة الثالثة في التّوزع القبلي على المجال.

هيأت هذه الظروف مجتمعة الى تصادم مختلف القوى انتهت بالحرب في مدينة سبيبة، حيث اتفقت المصادر على أن الوقعة كانت في مجال فحص سبيبة والتي تسمي قديما Sufes، تنتمي لمنطقة السباسب العليا الافريقية وتعدّ ضمن مناطق الاستيطانيّة القديمة لهذا الإقليم[30]، شهدت ازدهارا عمرانيّا هاما في العهدين الفاطمي والزّيري لأهميّة عدد القرى والمنازل التي كانت منتشرة حولها، وتراجعت أهميتها إثر المجيئ

---

[23] ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين احمد)، (1972)، وفيات الاعيان وابناء الزمان، حققه احسان عباس، 8اجزاء، دار صادر،بيروت، ج6، ص 197.

[24] ابن خلدون، (1959) العبر..، دار الكتاب اللبناني، ص35.

[25] ابن عذاري، البيان.. ج1، ص 294.

[26] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص237.

[27] ابن عذارى عبد الله بن محمد المراكشي (1948)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (4 أجزاء)، بيروت – لبنان، ، ج1، ص294.

[28] ابن الاثير، نفس المصدر، ج9، ص240

[29] ابن خلدون، (1959)، ص339

[30] BAHRI. F., (2001), "SBIBA entre deux Conquêtes à travers trois sites Islamiques de la conquête Musulmane au Ier-VII^{ème} siècle à l'Invasion Hilalienne au milieu du V^{ème}-XI^{ème} siècle", *Actes du Colloque de Sbeïtla,* pp.163-179

الهلالي أشار صاحب الاستبصار أنّ العرب خرّبتها[31]، ولكن الأحداث بيّنت أنّها حافظت على حضورها السياسي والتمدّني عهد الإمارات المستقلّة، خاصة لوجودها على الطريق التجارية الرّابطة بين القيروان وقلعة بني حمّاد، وإن اخضاعها لأحد الطرفين كان محددا لمصير القوى المتنازعة وذلك إمّا بالتّقدم نحو المناطق السباسب السفلى أو العكس الاتجاه نحو مرتفعات مسيلة، وإن أطوار المعركة جمعت بين تميم وحلفائه من القبائل الهلاليّة فروع رياح في مواجهة ابن عمّه الناصر المتحالف مع فروع الأثبج قال صاحب الاستبصار " **أن العرب لما دخلوا إفريقية وأفسدوا القيروان وأكثر مدن إفريقية هرب منهم صاحب القيروان الصنهاجي وتحصن بمدينة المهدية وكان ابن عمه صاحب القلعة المنصور بن حماد اشد شوكة من صاحب القيروان وأكثر جيشا فخرج لنصرة ابن عمّه، وجيشه جيشا كبيرا فلقيته العرب بحملتها بفحص سبيبة على مقربة من القيروان فكان بينهم يوم عظيم حتى هُزم المنصور وقتل أخوه وأكثر صنهاجة وذلك ان أخاه كان أسن منه فنهاه عن مقابلة العرب وقال له أقم أنت ببلادك وابعث إليهم وصانعهم يأتونك خاضعين وفي جبائك طامعين فهذا من خلق العرب قديما فلا تلقاهم فلما كان ذلك اليوم وهزم قال له أخوه "ألم أنهك ان تلقاهم بنفسك ولكن أعطني تاجك والراية أقم على الجيش... فسار بالجيش حتى لحق وقتل... فلما نجا المنصور إلى القلعة نزلت عليه جيوش العرب وضيقوا عليه ببلاده فكان يصانعهم حتى ضاق ذرعا بهم وكان لا يقدر على التصرف في بلاده فطلب موضعا يبني فيه المدينة ولا يلحقه فيها العرب فدل على موضع بجاية"**[32]. وقد أخطأ صاحب الاستبصار في ذكر الاسم عوض النّاصر بن حماد أورد اسم المنصور بن حماد الذي تولى الحكم سنة 481هـ. دفع انتصار القبائل الهلالية إلى تتطويق القلعة وقطع السبل عنها، فكان ذلك من أسباب بناء وعمار بجاية.

3. بجاية: عملية اختيار الموقع والبناء

1.3 اختيار الموقع

تعدّدت الروايات التاريخية حول الانتقال من القلعة الى بجاية وعلى شروط اختيار الموقع، ولكنها لم تختلف في سرد الحيثيات التي أحاطت به، واتفقت كما قال الحموي "**إنّما عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد بن بلكين التي تنسب دولة بني حماد إليها**"، ربما الاستثناء في ما أجمعت عليه المصادر هو نصّ ابن الخطيب الذي أعطانا دافعا مخالفا لبناء بجاية وحصره في ما أتى "**لما استقام الامر للناصر بن علناس كره مجاورة بنى حماد أكناف القلعة المنسوبة إليهم اذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة اثنا عشر الف فارس فبني قريبا منها بالجبل مدينة وقصورا مسماة بعدّة أسماء**"[33]، رغم انفراده بهذه الفكرة الا أن رأيه لا يخلو من الصواب، إذ أن ميلاد بجاية كحاضرة وقاعدة سياسيّة واقتصاديّة يقابله تضاؤل دور القلعة على جميع الأصعدة، لكنها دون شك لم تتعرض لعملية الاخلاء وتواصل بيها النشاط المعماري عهد المنصور بن حماد[34]، ولم تعرف نفس المسار التاريخي الذي شهدته مدينة صبرة المنصورية ثم القيروان اللتين خرّبتا اثر معركة حيدران، وانهزام المعز بن باديس أمام القبائل الهلالية، لفائدة المهدية التي عرفت الازدهار تحت حكم ابنه تميم بن المعز بن باديس.

---

[31] مؤلف مجهول، نفس المصدر، ص161

[32] مؤلف مجهول، ت في نهاية القرن السادس هجري / الثاني عشر ميلادي، (1985)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية.

[33] ابن الخطيب لسان الدين، (1964) تاريخ المغرب في العصر الوسيط، القسم الثالث، دار الكتاب، المغرب، ص64.

[34] بوريبة رشيد، (1977) الدولة الحمادية، تاريخها، وحضارتها، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، ص 68.

نشير في البداية الى أن بجاية لم تكن مدينة مُحدثة فقد تميّز موقعها بقدم تعميره منذ الفترة البيزنطيّة والرّومانية[35]، يقول صاحب الاستبصار في وصف الموضع "**وكان مرسى ويقال أنه كانت فيه آثار قديمة** "[36]، وذهب الحميرى الى أن هناك من اعتبرها مدينة قديمة فيما سلف، وأشار ابن خلدون الى أنّ التسمية تعود أصولها إلى فرع قبلي من بطون صنهاجة يسمي بجاية الذي أعطى اسمه للمدينة، وهي عادة متداولة في أسماء المواقع الافريقية أو ما يطلق عليه بعلم الطوبونوميا أن تأخذ المدن أو الاقاليم أسماء من سكنها أو أسّسها، لذا أشار المؤرّخون أن بجاية تسمّت أيضا بالنّاصرية نسبة الى الناصر بن علّناس، وهو ما يؤكّد وقوع صاحب الاستبصار في الخطأ بذكره أن مدينة بجاية بناها المنصور وسمّيت بالمنصوريّة وهي حسب بقيّة النّصوص النّاصرية، وقد ذكر الحمّيري نفس الرّواية وبالأخطاء التي أشرنا إليها وهو دليل على أنّه أخذها عن صاحب الاستبصار، لكنّه تدارك الأمر قائلا "**ورأيت في خبر آخر أنّ النّاصر بن علّناس صاحب قلعة حماد هو الذي بنى بجاية وصيّرها دار ملكه ولهذا تسمى الناصريّة وأظنّ ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة**"[37] وهو الخبر الصحيح. وأن اختطاط المدينة في وسط قبلي صنهاجي من قبيلة بجاية وبني سدويكش وزواوة ينطوي على بعد نظر سياسي بأن هذه المجموعات ستكون درعا واقيا ضد القبائل الهلاليّة وإنها بالتالى مؤيدة ومحتضنة للسلطة الجديدة بحكم نفس الانتماء الاتني ووحدة المصالح.

لذا اعتمدنا نصّا مفصّلا لدى ابن الاثير حول قرار البناء قال فيه[38] "**أنّ وزير النّاصر، أبا بكر بن أبي الفتوح أرسل رسولا من عنده إلى تميم يعتذر ويرغب في الإصلاح. فقبل تميم وأرسل إلى النّاصر محمد بن البعبع، رجلا غريبا كان أحسن إليه الأمير الزّيري. فسار محمد بن البعبع مع الرّسول الحمّادي ولما وصل إلى قلّعة بني حمّاد سلم كتاب تميم إلى النّاصر ثمّ قال له : "معي وصية إليك وأحبّ أن تخلي المجلس فقال النّاصر أنا لا أخفي عن وزيري شيئا فقال بهذا أمرني الأمير تميم. فقام الوزير أبو بكر وانصرف. فلما خرج قال الرسول يا مولاي إنّ الوزير مخامر عليه هواه مع الأمير تميم لا يخفي عنه من أمورك شيئا وتميم مشغول مع عبيده قد استبدّ بهم وأطرح صنهاجة وغير هؤلاء ولو وصلت بعسكرك ما بت إلاّ فيها لبغض الجند والرعيّة لتميم وأنا أشير عليك بما تملك به المهديّة وغيرها وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتّخذها دار ملك ويقرب من بلاد افريقيّة وقال له أنا أنتقل إليك بأهلي وأدبّر دولتك فأجابه النّاصر إلى ذلك وارتاب بوزيره وسار مع الرّسول إلى بجاية وترك الوزير بالقلّعة. فلمّا وصل النّاصر إلى بجاية أراه موضع المينا والبلد والدّار السلطانيّة وغير ذلك. فأمر النّاصر من ساعته بالبناء والعمل وسرّ بذلك وشكره وعاهده على وزارته إذا عاد إليه ورجعا إلى القلعة. فقال النّاصر لوزيره أنّ هذا الرسول محبّ لنا وقد أشار ببناء بجاية ويريد الانتقال إلينا فاكتب له جواب كتبه. ففعل وسار**

Golvin. L., (1957), Le Maghreb Central à l'époque des Zirides, Edition Art et Métiers Graphiques, Paris, p.193.

[35] Lepelly. C., (1981), « Les cités de l'Afrique romaine au Bas-Empire », Paris, Etudes Augustines, Vol.II, pp.505-507.; Thebert.Y., (1986), "Permanences et mutations des espaces urbains dans les villes de l'Afrique du Nord orientale : De la cité antique à la cité médiévale" *C.T*, XXXIV, N° Spécial 137-138, pp. 31-46. ; Gaid. Mouloud., (1991), *Histoire de Béjaia et sa région depuis l'antiquité jusqu'à 1954*, réed Alger, Edition Minouni.; Marçais. G., « BIDJAYA », *E.I,* pp.1240-1241.

[36] مؤلّف مجهول، نفس المصدر، ص 162

[37] الحميري، الحميري محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم التونسي، ت بعد 726 هـ / 1326م، (1984)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ص 80-81.

[38] ابن الأثير، الكامل..، ج 8، ص 102-103.

الرّسول وقد ارتاب به تميم حيث تجدّد بناء بجّاية عقيب مسيره إليهم وحضوره مع النّاصر فيها، وكان الرّسول قد طلب من النّاصر أن يرسل معه بعض ثقاته ليشاهد الأخبار ويعود بها. فأرسل معه رسولا يثق به فكتب معه انّني لما اجتمعت بتميم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن بناء بجّاية وقد عظم أمرها عليه واتهمني فانظر إلى من تثق به من العرب ترسلهم إلى موضع كذا فإنّي سائر إليهم مسرعا، وقد أخذت عهود زويلة وغيرها على طاعتك وسير الكتاب. فلمّا قرأه النّاصر سلمه إلى الوزير فاستحسن الوزير ذلك وشكره وأثنى عليه وقال لقد نصح وبالغ في الخدمة فلا تؤخّر عنه انفاذ العرب ليحضر معهم ومضى الوزير إلى داره وكتب نسخة الكتاب وأرسل الكتاب الذي بخط الرسول إلى تميم وكتابا منه يذكر له الحال من أوّله إلى آخره. فلما وقف تميم على الكتاب عجب من ذلك وبقي يتوقع له سببا يأخذه به إلاّ أنّه جعل عليه من يحرسه في اللّيل والنّهار من حيث لا يشعر. فأتى بعض أولئك الحرس إلى تميم وأخبروه أنّ الرسول صنع طعاما وأحضر عنده الشريف الفهري وكان هذا الشّريف من رجال تميم وخواصه فأحضره تميم فقال كنت واصلا إليك وحدثه أنّ ابن البعبع الرسول دعاني فلما حضرت عنده قال أنا في ذمامك أحبّ أن تعرفني مع من أخرج من المهدية. فمنعته من ذلك وهو خائف. فأوقفه تميم على الكتاب الذي بخطه وأمره بإحضاره. فأحضره الشريف. فلما وصل إلى باب السلطان لقيه رجل بكتاب العرب الذي سيرهم الناصر إليه يأمره بالحضور عنده. فأخذ الكتاب وخرج الأمير تميم. فلما رآه ابن البعبع سقطت الكتب منه فإذا عنوان أحدها من الناصر بن علناس إلى فلان. فقال له تميم من أين هذه الكتب. فسكت. فأخذها وقرأها. فقال الرسول ابن البعبع العفو يا مولانا فقال لا عفا الله عنك وأمر به فقتل وغرقت جثته". حسب الرواية ان الرسول الذي بعثه تميم بن المعزّ لعقد الصلح بينه وبين ابن عمّه النّاصر هو الذي أشار على هذا الأخير بموقع بجاية، وإن نظرته كانت صائبة نظرا لمميّزات التي حظي بها هذا الموقع وهي بارزة للعيان، ويستجيب لشروط بناء الحاضرة، ذلك خاصة أن الحياة الحضريّة للمدن الاسلاميّة انبنت على هويّة مشتركة، ارتكزت على مجموعة من العناصر التي اختلف المؤرّخون في تصنيفها لكنه اثرى الحقل الدلائلي لمفهومها، ونجدها بشكل مقتضب لكنه شامل في نصّ لابن أبي زرع **"وقالت الحكماء أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي: النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها"**[39]. بينما مدح ابن خلدون حسن اختيار الموقع المحمي طبيعيا وأخذ بجاية نموذجا بقوله ".. **ومتى كانت القبائل والعصائب موطنين بقربها، بحيث يبلغهم الصريخ والنعير، وكانت متوعّرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها؛ كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها، لما يكابدونه من وعرها، وما يتوقّعونه من إجابة صريخها. كما في سبتة وبجاية وبلد القلّ على صغرها"**[40]. انفردت المدينة بمميزات طبيعية تشتمل على مختلف العناصر التضارسيّة من جبال وتلول ومنخفضات شديدة الانحدار[41]، شيدت في سفح جبل أمسيون وهي بذلك تتشابه مع القلعة التي أُسّست على سفح جبل عجيسة ومدن افريقية مثل تونس وقفصة التي أُحيطت هي أيضا بالمرتفعات. يقول الوزان الفاسي "**بأنها تكاد أن تكون كلها مؤلفة من جبال شاهقة ووعرة ..وتلال وسهول، كما أنها تجمع بين الموقع البحري والجبلي وتوفر المياه بها**[42]، إذ يحدّها من جهة الغرب الواد الكبير الذي ينبع من جبال جرجرة[43]، وأن جبالها المرتفعة ومنحدراتها

---

[39] ابن ابي زرع (1973)، الأنيس المطرب بروض القرطاس..، الرباط، ص 33.

[40] ابن خلدون، (1983) العبر..، بيروت، ج2، ص617-621.

[41] العربي اسماعيل، (1980) دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 183.

[42] حسن الوزان، (1984)، وصف افريقيا، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، طبعة2، ص 50.

[43] ابن سعيد المغربي، (1970)، كتاب الجغرافيا، حققه إسماعيل العربي، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص 142.

الوعرة جعل منها موقعا حصينا يصعب الولوج إليه بسهولة من الجهة البرّية لتمثّل موطنا آمنا من العرب الهلاليّين وتوسعاتهم وتوغلاتهم التي تتوقف عند سفح الجبل كما أشار الادريسي بقوله **"هاهنا تصل غارات العرب وضررها"**[44]، بل أن صاحب الاستبصار اعتبر أنّ الموقع لعب دورا هاما جعلها في منأى عن تعدّيات القبائل الهلاليّة وأيضا في تحديد مصير المدينة حين قال " **ما بين جبال شامخة قد أحاطت بها والبحر منها في ثلاث جهات في الشرق والغرب والجنوب ولها طريق إلى جهة المغرب يسمى بالمضيق على ضفة النهر المسمى بالوادى الكبير وطريق القبلة إلى قلعة حماد على عقاب وأوعار وكذلك الطريق الى الشرق وليس لها طريق سهلة الا من جهة الغرب فلم يكن للعرب اليها سبيل ولا كان يدخل من العرب إلا من يبعث إليه الملك لمصانعه على بلاد القلعة وغيرها فيدخلها افراد وفرسان دون عسكر فبقي صاحب بجاية في ملكك شامخ وعزّ باذخ يضاهي في ملكه صاحب مصر**". هكذا تبرز الحصانة الطبيعية لبجاية أيضا في مناعتها البحريّة فقد بنيت على جرف من حجر يحيط بها البحر من ثلاث جهات فيرتسم موقعها بتقوس اهليجي عرضه حوالي 28 ميلا[45]، يبتدأ من الشرق وينتهي في الغرب عند منحدر جبل امسيون[46]، وهو ما عاينه العبدري في رحلته قائلا **"وهي مدينة حصينة منيعة شهيرة بريّة بحريّة.. مقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليها اشراف الطليعة متحصنة بها منيعة"**[47].

هذا التّنوع التضاريسي قد ساعدها على ممارسة النشاط الزراعي المتنوّع خاصة أنّها كانت حسب عبارة الاستبصار **"على فحص قد أحاطت به جبال تدوره نحو 10 أميال تسقيه أنهار وعيون وفيه أكثر بساتينهم ولها نهر كبير يقرب منها بنحو ميلين أو دونها وعليه كثير من جناتهم وقد صنعت عليه نواعير تسقى من أنهر وله منتزه عظيم"**[48] وإن اكتفى الادريسي بالقول أن بها كثير من المزارع والحنطة والشعير والتين وسائر الفواكه[49]. فإن نصّ القلقشندي جاء أكثر منه تفصيلا فقد ذكر من حبوبها القمح والشعير والحمص والفول والعدس والذرة والجلبان، أما الفواكه فهي العنب والتين كل منها على أنواع والرمان منه الحلو والمر والحامض والسفرجل والتفاح والعناب والزعرور اضافة الى الخوخ والمشمش على أنواع والتوت الأبيض والفرصاد والزيتون والليمون، أما الجوز فكان قليل بها، كما تفتقد الى النخيل والموز، ووجد بها قصب السكر على قلة، وبها البطيخ الأصفر على أنواع والبطيخ الأخضر الذي يسمى عندهم الدلاع وكذلك اللوبيا واللفت والباذنجان وسائر البقوليات[50]، كما أن النشاط الحرفي لم يكن أقل أهمية من الفلاحة نظرا لوجود المواد الخام في الموقع، ولأهمية الحركة التجاريّة جعل **"بها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد"**[51]، وأضاف الحميري **"وبها من الصناعات كلّ غريبة"**[52].

ومقارنة ببقية الحواضر مثّلت قطبا لعديد من البلدان، وتعتبر همزة وصل بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب، لخّص الادريسي المسافات بينها وبين عدّة مدن وهي كما وصفها لنا " **من بجاية الى اتكجان يوم وبعض يوم ومن بجاية الى بلزمة مرحلتان وبعض ومن بجاية الى**

---

[44] الادريسي الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي)، ت 560 هـ / 1166 م (1989)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق محمد الحاج صادق، بيروت.

[45] ابن سعيد المغربي، (1970)، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، صبعة2، ص 142.

[46] جبل جورايا حاليا

[47] العبدري محمد البلنسي، (1968) الرحلة المغربية، تحقيق احمد بن جدو، مطبعة الجزائر، دت، ص 23.

[48] مؤلف مجهول، نفس المصدر، ص 129.

[49] الادريسي، نفس المصدر، ص 260.

[50] القلقشندي، (1915)، صبح الأعشى، مطبعة الأميرية، القاهرة، ج5، ص112.

[51] الادريسي، نزهة..، ص 260.

[52] الحميري محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم التونسي، (1984) ت بعد 726 هـ / 1326م، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ص 80-81.

سطيف يومان وبين بجاية وباغاية ثمانية ايام وبين بجاية وقلعة بشر خمسة ايام وهي من عمالة بسكرة وبين بجاية وتيفاش ست مراحل وبين بجاية وقالمة ثماني مراحل وبين بجاية وتبسة ستة ايام وبين دور مدين وبجاية احدى عشرة مرحلة وبين بجاية وطبنة سبع مراحل"[53]. وبالنسبة للمدن والجزر المتوسطية يحدد أبو الفداء موقعها من جهة الأندلس بقوله "**يقابل بجاية من الاندلس طرطوشة وعرض البحر بينهما ثلاث مجاري"**[54]، وهي نفس المسافة التي عدّها القلقشندي[55]. مما جعلها منفتحة على التيارات الخارجيّة والمراكز الاقتصاديّة بحوض المتوسط، ليكتسب المكان الطّوبوغرافي والجغرافي خاصّية مزدوجة.

2.3 الصّورة المعماريّة للمدينة الإسلاميّة في الطّور الاوّل

بعد اختيار الموقع جاء قرار البناء المعماري، ونشير في هذا الصدد أنّه منذ الفترة الاسلاميّة الأولى فضّل القادة العرب في الابتعاد عن السواحل الافريقيّة لفائدة المدن الدّاخلية، وذلك تفاديا للخطر القادم من "بحر الروم" لافتقارهم للتقاليد العسكريّة-البحريّة ووسائلها في مجابهته. إلا أنّه في المرحلة الثالثة من التّمدن الاسلامي بافريقية خلال القرنين الخامس والسّادس الهجري/11-12م استردّت المدن السّاحلية سيطرتها على مجالها رغم انتشار نمط العيش البدوي، في هذه الفترة يمكن القول أن بجاية، كمثال نموذجي للمدن الافريقية، تجاوزت حدودها التقليديّة والمخطّطة لها إلى نشوء مفهوم آخر للسلطة يختزنه المصطلح الاغريقي "المدينة الدولة" أو "الإمارة" لا بالمفهوم الديني إنّما بالمفهوم السيّاسي، وإنّ محاولة لاستعراض التكّوين والنّمو الحضري في أي مرحلة من مراحل التّتبع لمسارها التاريخي يتطرّق لطبيعة خصائص تنظيمها الإجتماعي وأساسها الإقتصادي لفهم العناصر التشكيليّة لعمرانها، وهو ما دفع باستمرار للكشف عن تأثّرها الواضح بمختلف العوامل التي حدّدت نموّها، وبمجموعة الأفكار والقيم التي أشارت إلى تنظيمها. لذا لا تخلو دراسة التّمدن الإسلامي في مجال جغرافي محدّد من حصر بعض المفاهيم المتعلّقة بالمدينة ومكوّناتها الحضريّة، والحقل الدلالي الذي احتضنها وارتبط بها، منها في مصطلح المدينة الذي عرّفه لنا ابن منظور بقوله مدن: مَدَنَ بالمكان أقام به، فعل مُمات، ومنه المدينة، وهي فعلية، وتجمع على مدائن، بالهمز، ومُدْنٍ ومُدُن بالتخفيف والتثقيل؛ وفيه قول آخر: أنه مفعلة من دِنْتُ أي مُلِكْتُ؛ قال ابن بري: لو كانت الميم في مدينة زائدة لم يجز جمعها على مُدْنٍ. وفلان مدَّن المِدائن: كما يقال مَصَّرَ الأمصار. قال: وسئل أبو عليّ الفسوي عن همزة مدائن فقال: فيه قولان، من جعله فعلية من قولك مَدَنَ بالمكان أي أقام به همزه، ومن جعله مفعِلة من قولك دِينَ أي مُلِكَ لم يهمزه كما لا يهمز معايش[56] والمدينة: الحصن يبنى في أُصطُمَّةِ الأرض، مشتق من ذلك. وكل أرض يبنى بها حِصْنٌ في أَصطُمَّتِها فهي مدينة، والنسبة إليها مَدِيني، والجمع مدائن ومُدُنٌ. قال ابن سيده: ومن هنا حكم أبن الحسن فيما حكاه الفارسي أن مدينة فعيلة. الفراء وغيره: المدينة فعيلة، تهمز في الفعائل لأن الياء زائدة، ولا تهمز ياء المعايش لأن الياء أصلية. والمدينة: اسم مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاصة غلبت عليها تفخيما لها، شرَّفها الله وصانها، وإذا نسبت إلى المدينة فالرجل والثوب مَدَنِيّ، والطير ونحوه مَدِيني، لا يقال غير ذلك. قال سيبويه: فأما قولهم مدائني فإنهم جعلوا هذا البناء اسما للبلد، وحمامة مدينيَّة وجارية مدينيَّة. ويقال للرجل العالم بالأمر الفَطِنِ: هو ابن بَجْدَتِها وابن مدينتها وابن بلدتها وابن بُعْثُطها وابن سُرْسُورها." والمدينة في الدراسات الحديثة تعني الوحدة الترابيّة التي تتسم بانتشار العمارة واتصالها كما تحيط بها عديد القرى والبوادي[57].

---

[53] الادريسي، نفس المصدر، ص 260.

[54] ابو الفداء عماد الدين إسماعيل، (1840) تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، ص64.

[55] أبو العباس احمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الانشى، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر، ج5، ص 109.

[56] ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص 402.

[57] دبيش لطفي، (1992(المصطلح الجغرافي، ص 243.

وإذا ما قارنا المصطلحات التي استعملها الجغرافيون لوصف بجاية نرى إنها ارتقت من مجرّد مرسى قبل أن ينتقل إليها بنو حماد وذلك ضمن التوصيف الذي قدّمه ابن حوقل[58]، الى مفهوم المدينة بداية من النّصف الثّاني من القرن الخامس الهجري حسب ما كتبه الادريسي في مؤلفه حول مراسي ومواني افريقية وبلاد المغرب **"ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الاوسط وعين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة[59]**، ونعتها صاحب الاستبصار بالمدينة العظيمة واتفق معه الحميري مضيفا بأنّها قاعدة المغرب الأوسط[60].

هذا التصنيف الذي يعكس إعجاب الجغرافيّين بالمدينة انبنى خاصة على كون النّسيج العمراني تميز بتنوّعه وكثافته وبراعة في استعمالات الأرض باستغلال الإرث القديم شأن العديد من المدن العربيّة الاسلاميّة لذا يرتكز البحث في نشأة المدينة على معمارها ومعالمها، وأهمّها التحصينات والدفاعات المتمثّلة في الأسوار لحمايتها من الهجومات الخارجيّة، والتي تتضاعف حصانتها بحفر الخندق في بعض المدن والذي لا نجده في مثالنا المدروس، أشار الحميري نقلا عن صاحب الاستبصار أن البحر يضرب في سورها[61] مثل مدينة المهدية عاصمة بنو زيري، أما بالنسبة للمواد المستعملة في بنائها فقد أشارت الدراسات الأولى حول عواصم الجزائر[62] الى أنّه اعتمد على الحجر والدبش والآجر وتكون هذه الأسوار مبنية بالحجارة التي يتم جلبها من مقاطع قريبة لتسهل عملية البناء والأرجح أن الجبال المحيطة ببجاية كانت هي الممول بمواد البناء وأيضا الآثار القديمة وقع استغلالها كمواد بناء معادة الاستعمال خاصة الأعمدة والتيجان والجدران والعناصر الانشائيّة والزّخرفية للقصور والجوامع والمساجد وغيرها من المنشآت الحياتيّة. حسب رسم السور الذي ساير الموقع الجبلي للمدينة فان مساحتها تأخذ شكل مثلث تبدأ قاعدته من الناحية البحريّة لينتهي في قمة الجبل، وهو نفس شكل التخطيط القلعة ومدينة بنزرت عهد إمارة بنو الورد وهو دليل على ان السكان الاصليين قد برعوا في بناء الاسوار التي ورثوها منذ الفترة الرومانية والبيزنطية بافريقية، وحسب احدى الدراسات فان مسار السور اتبع مسار الخطّ الروماني واتسع في الناحية العليا للمدينة[63]، يمتد على مساحة 5400م، وتتباين نقاط ارتفاعه من موقع الى آخر حسب طوبغرافية المجال تصل الى 6 أمتار، أما سمكه فتتراوح من 90 صم الى 2.50م[64]، كانت تعلوه شرفات ومشى للعسس تتخلله أبراج مستطيلة الشكل يصل علوّها الى 6م، وتبلغ قاعدتها ما بين 3م عرض و 4م طولا وتفصل بينها مسافة 25 م.

كما كانت الأسوار مجهّزة بأبواب حسب المداخل التي تفتح المدينة على محيطها الخارجي وتؤمّن حركة الدخول والخروج إليها والأبواب هي من ثوابت العمارة الاسلاميّة لذا تعددت أشكالها ووظائفها وتنوعت زخرفتها باستعمال مواد مختلفة في تهيأتها من خشب ورصاص وزنك وحديد وذهب..[65]، ووجد في بجاية معادن الحديد الطيب[66] لذا نرجح استغلاله في بنائها. وهي متّصلة عادة بالمسالك والطّرقات التي تمثل شرايين المدينة ونشير هنا الى أن كتب التّراجم والطّبقات كانت لها اسهاماتها في مدّنا بمعلومات تخصّ هذا الجانب منها أسماء الأبواب

---

[58] ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، دار الحياة، بدون تاريخ، ص77.

[59] الادريسي، نزهة المشتاق، ص 260.

[60] الحميري، ص 80.

[61] الحميري، ص 80-81.

[62] Debeylie., G.L, (1909), La Kalaa des Beni-Hammad, une capitale Berbère de l'Afrique du Nord au XI[ème] siècle, Ernest Leroux, Paris, p.106.

[63]. بويحياوي (2004) ، تطور العمران الاسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط، رسالة دكتورا، معهد الآثار جامعة الجزائر ، ، ص 255.

[64] Bourouiba. R., (1983), Architecture militaire de l'Algérie médiévale, OPU, p.80.

[65] Bausani. A., (1975), « BAB », *E.I*, nouvelle édition G.-P. Maisonneuve et Larose S.A., Leiden E.J. Brill, Paris, T.1, pp. 853-858.

[66] الادريسي، نفس المصدر، ص 260.

ومواقعها التي عادة ما تأخذ اتجاهات المدينة أو مكانها الطوبغرافي أو اسماء الحرف أو اسماء أشخاص معروفة..، ولم تشذّ بجاية عن هذه القاعدة فقد ذكر لنا الغبريني في عنوان الدّراية في ترجمتة لأبي علي حسن بن علي بن محمد المسيلي (ت 580هـ/1185م) أنّه توفي ودفن بمقبرة خارج باب أمسيون[67]، وفي نفس المقبرة دفن أيضا أبو العباس احمد بن خالد(660هـ/1262م)، يقع هذا الباب في الجهة العليا من المدينة في السور الشرقي والى جانبه يفتح باب المرسى وهو أيضا مذكور في الدّراية في ترجمة لأبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمان بن عبد الله بن حسن بن سعيد بن ابراهيم الأزدي الاشبيلي(510هـ-581هـ/1116-1185م) الذي دُفن خارج باب المرسى، تكرّر ذكر هذا الباب في ترجمة ابو عبد الله العربي وأبو محمد عبد الله بن ربيع بن احمد بن عمر الانصاري[68]، كان يصل بين برج سيدي عبد القادر وميناء سيدي يحي. وفي حديثه عن مناصرة أبو الطاهر عمارة بن يحي بن عمارة الشريف الحسني عاش بعد 585هـ-1189م أورد لنا الغربيني اسم باب من الجهة الغربية في جبل خليفة يسمى باب اللّوز مؤكّدا أنّه لا يوجد سور عليه[69]، وقربه باب البنود الذي يقع في الجهة الشماليّة الغربيّة للمدينة[70] وهو المدخل الرئيسي لها هندسيا يعلوه ساكف يتكون من عقد نصف دائري من الحجارة ويحيط به من الجهتين برجان الأول خماسي الاضلاع وهو أصيل في المعلم والبرج الثّاني حديث يعلوهما شرفات لرمي القذائف يعلو الباب ممشى للحرس الذي يصل البرجين بالسور، وجود الأبراج هي تقاليد راسخة في العمارة الاسلاميّة تأخذ اشكال متعددة واعتمدت منذ القرن الأول للهجرة في المشرق الإسلامي[71]، وباب تاطونت في الجهة الشماليّة، ثم نجد باب البحر الذي يفتح على الواجهة البحريّة متصلا بالسور الجنوبي والذي نجده تقريبا في المدن الساحليّة مثل مدينة تونس وصفاقس وقابس، وأشار إليه صاحب الدراية حول عودة ابو عبد الله العربي من الحجّ ومروره بحومة باب البحر[72]، من الناحية المعماريّة يساوي عرضه 7.60م وارتفاعه 11.90م اما عمقه فيصل الى 4.30م ويرتفع على عضادتين يبلغ مقدار سمك كل واحدة 1.10م وارتفاعها 2.60م تتكون ساكفة الباب من عقد منكسر، يدعم الباب برجان مربعان بارزان على مستوى الجدار مازالت اثارهما شاهدة للعيان الى حد الآن ويعلو الباب ممشي للعسس[73]، أما باب الدباغين فيقع على الوادي الكبير الذي ينسب لنشاط حرفة الدباغة، وذكر الغبريني أن ابو الحسن عبيد الله بن عبد المجيد بن عمر بن يحي الأندي دفن بباب الجديد[74].

وغالبا ما تجهز الأسوار بمحارس وأبراج للمراقبة مدعمة بالأبراج أو ما يسمى بالرّباطات[75]، ونرى أنه الى جانب حصانة الموقع فان بجاية حظيت دون شكّ بوسائل دفاعية واستحكامات عسكرية يصعب اختراقها، وتعكس عمارتها الرغبة السياسيّة في جعلها مدينة حصينة آمنة في زخم الانتشار القبلي، لكن هذه الدعامات ذكرتها النصوص في فترة لاحقة للإمارات المستقلّة اي بُعيد قدوم الموحدين.

---

[67] أبو العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله (644 هـ/714هـ)، (1979) عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، حققّه وعلّق عليه عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثانية، أفريل، ص 35.

[68] الغبريني، عنوان الدّراية..، ص 51 وص 60.

[69] الغبريني، عنوان الدّراية..، ص 45.

[70] يعرف حاليا باسم باب الفوقة

[71] Golvin, L., (1859), « Note sur les entrées en avant corps et en chicane dans l'architecture musulmane de l'Afrique du nord », Annales de l'institut d'études orientales, T. XVI.

[72] الغبريني، عنوان الدّراية..، ص 49.

[73] بورييبة رشيد، (1983)، "أسوار المدن الاسلامية في العصر الوسيط" ترجمة عريب مختار، مجلة الجامعة، عدد 18، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 45.

[74] الغبريني، عنوان الدّراية..، ص 128.

[75] Colin .G.S., (1975), « Burj », *E.I,* T.1, Paris, p.1355.

وان ساحلية الموقع جعلت من بجاية من أهم المراسي والموانئ في حوض البحر المتوسط، ذكره ابن حوقل، كما سبق وأن أشرنا وارتبطت حسب البكري بعلاقات تجارية نشيطة خاصة مع الأندلس إذ قال "**ويقابل من جزائر الأندلس جزيرة ميورقة وبقرب منها مرسى مدينة بجاية أوّلية آهلة عامرة بأهل الأندلس، وبشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة وهو مرسى مأمون شتوي قد خرج عن محاذاة جزيرة الأندلس... ومرسى بجاية هو ساحل قلعة ابي طويل وعلى هذا المرسى في تلك الجبال قبائل كتامة وهم شيعة**"[76]، يبدو أن هذا النصّ يتطابق مع الفترة الفاطمية الزّيرية لأن البكري اكتفي بوصفها مرسى لأهل الأندلس وأن جبلها عامر بقبيلة كتامة الموالية للفاطميين وتدعو لمذهب الشيعة وهذه النزعة تراجعت وتضاءلت كثيرا في عهد الامارات المستقلّة، لكنها إشارة هامة حول وجود مرسى قبل الانتقال إليها فهل قام النّاصر بن علناس باستغلال نفس المرسى أم ببناء ميناء جديد، وهذا التساؤل مردّه إشارة وردت لدى صاحب الاستبصار الى وجود داران لصناعة السّفن، ربما ما ذكره الادريسى المعاصر للأحداث من تطور نشاطها واتساع علاقاتها التجاريّة المرتبط بأهمية إعمار وتعمير المدينة يفسر لنا هذا التضارب وهو أن الحمّاديين قاموا باستغلال الميناء القديم للتبادل التجاري مع مشارق الأرض ومغاربها، ثمّ بنوا دار لصناعة السفن التجاريّة والحربيّة اذ قال " **والسفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة اليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة واهلها مياسير تجار... وأهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة... وبها دار صناعة لإنشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابي**"[77]، ،كما تبرز بعض الأحداث التّاريخية أن العزيز بن المنصور الحمّادي قام سنة 530هـ ببعث أسطول بحري حاصر به المهدية لمدة سبعون يوما، وفي الأثناء مدّ قائده بغُرابين[78]. كما أن التنافس البحري بين البجائيين وأبناء تميم في المهدية خير دليل على أهمية دار الصناعة في انتاج السفن بوفرة عددها وإتقان صناعتها وهو ما نستخلصه لنص لابن عذاري الذي ذكر فيه أنّه في سنة 532 هـ أخذ صاحب المهدية المركب الذي أنشأه صاحب بجاية كردّ فعل على تعطيل مركبه في الإسكندرية. كما أخذ مركب بجائي بعثه صاحب مصر الى الامير الحمادي به بضائع عظيمة لها شان وأثمان للتجار[79]. وإن المصطلحات المستعملة توضّح لنا أكثر صورة أهمية نشاط دار الصناعة فالسفن والمراكب هي للتجارة، أما الحرابى والغراب فهي تنتمي لمعجم السفن الحربية. كما أن تنوّع أصناف السّفن مردّه حسب النصوص الى وجود المادّة الأولية بشكل وفير وهو الخشب، خاصة خشب الارز والصنوبر وتستعمل المسامير الحديدة لضبط الواحها، ويستخدم الكتان لصنع الحبال، وتقلفط هذه السفن بالقطران، وهو موجود بوفرة في المحيط الغابي لبجاية بشهادة الحميري "**ويجلب إليها من أقاليمها الزيت الطيب والقطران**"[80]. إن هذا الإزدهار يعود دون شك الى البنية المعماريّة التحتيّة التى وفرت المرافق العامة منها الفضاء المهيأ للمعاملات الاقتصاديّة وهي الأسواق، رغم غياب المعلومات حولها في فترة التأسيس إلا أن ما ذكر عن الأنشطة الحرفيّة والصناعيّة يفرض وجودها، وأن البناة اتبعوا في أسلوب بنائها على النموذج الهندسي لبقية المدن وخاصة لنظيرتها القلعة التي زوّدت الحاضرة الثالثة لبني حماد بمختلف المجموعات البشريّة منهم البنّائين. خاصة أن سياسة النّاصر اتجهت نحو تشجيع السّكان على الانتقال إليها يقول ابن خلدون " **ونقل إليها الناس وأسقط الخراج عن ساكنيها**"[81]، والخراج هي ضريبة على الارض "**ما وضع على رقاب الارض من حقوق عنها**"[82]، وأصبح ديوانه من أهم الدواوين في الدولة الإسلاميّة وقد اتبع الناصر سياسة التعمير لعمر

---

[76] البكري، (1992)، المسالك والممالك، الدار العربية للكتاب بيت الحكمة، فقرة عدد 1269، ص 757

[77] الادريسي، نزهة...، ص 260.

[78] ابن عذاري، البيان المغرب...، الدار العربية للكتاب، ج1، ص 312

[79] ابن عذاري، البيان المغرب...، الدار العربية للكتاب، ج1، ص 312

[80] الحميري، نفس المصدر، ص 80.

[81] ابن خلدون، نفس المصدر، ص 357.

[82] المارودي ابو الحسن(1298هـ)، الاحكام السلطانية، مطبعة الوطن، القاهرة، ص 140.

بن عبد العزيز الذي طلب من جنده اسقاط الخراج في فتح الاهواز لإعمار الأرض" **ان خل بينهم وبين عمارة الارض فان في ذلك صلاحا لمعاش المسلمين وقوة على عدوهم"**[83].

وان العلاقة حتمية بين ارتفاع نسبة سكان المدينة وتشييد المنازل والدور العامة للناس والقصور للطبقة الخاصة ومؤسّسات الدولة، ما يسمح لنا بالقول أن هذا الاستقرار الذي عاشته المدينة رغم الضغط القبلي على مجالها، انعكس بشكل ايجابي على التعمير والعمران، إذ أشادت النصوص التاريخيّة والشعراء الأدباء بأهمية المباني المنجزة خاصة قصر اللؤلؤة إلا أن صاحب الاستبصار أطلق نفس الاسم على موضع الذي بنيت فيه قصور ملوك صنهاجة "**وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر متصل بالمدينة، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراؤون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعا**". معنى هذا أن الموضع أخذ تسمية القصر وهي عادة متداولة في تراث التّمدن الاسلامي ويواصل وصفه للقصور الدالة على البراعة في التشييد بقوله "**فيها طاقات مشرقة على البحر عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية والمجالس المقرّصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها قد نقشت أحسن نقش وأنزلت بالذهب والازورد وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة وصورت فيها الصور الحسنة فجاءت من أحسن القصور واثمنها منتزها وجمالا..**"[84]. وجاء نصّ ابن خلدون متّفقا مع سابقه "**وبنى بها قصر اللّؤلؤة وكان من أعجب قصور الدّنيا**". وأن النّاصر هو الآمر بالبناء وأن شأنه عظم فبنى المباني العجيبة المؤنّقة وشيّد المدائن العظيمة، وبعد أن تولّى ابنه المنصور الحكم جعل بجاية عاصمة لدولته "**وهو الذي حضر ملك بني حمّاد وتأنّق في اختطاط المباني وتشّييد المصانع واتّخاذ القصور واجراء المياه في الريّاض والبساتين فبني في القلّعة قصر الملك والمنار والكوّكب وقصر السّلام وفي بجاية قصر اللّؤلؤ وقصر أميميون**[85]."وان نسب ابن خلدون عملية البناء مرّة للناصر وأخرى للمنصور فإنّنا نجد إشارة توضح هذا الخلط وهي ان المنصور "**اتّخذ من بجايّة معقلا وصيرها دارا لملكه وجدّد قصورها وشيّد جامعها**". والأكيد أنّه قام بترميم قصر اللؤلؤة لا البناء. وقد ألهم هذا القصر الشعراء في نظم الشعر لمدحه وأشهرهم ما قاله الشاعر ابن حمديس الذي خصّص قصيدتين لوصف قصر المنصور اللؤلؤ. فعبّر عن جماله وبهائه وقارنه بالمباني المشهورة التي شيّدها العرب والفرس والرّوم. ومن خصائص هذا القصر أن أبوابه الخارجيّة والداخليّة وساحاته مفروشة بالرّخام وسقفه مزيّن بصور الحيوانات وبهاء بساتينه وجنّانه. إن السّقف المزيّن بمناظر الصّيد يذكّرنا بسقف قصير عمرة الذي يقع على نحو 50 كلم شرقي عمّان ويرجع تشييده إلى العهد الأموي، كما نجد عددا كبيرا من مناظر الصّيد تزيّن سقف كنيسة Chapelle Platine بصقلية. وهكذا مع أنّ قصر المنصور قد اندثر، نستطيع أن نتخيّل الزّخارف التي تزيّن سقفه عندما نرى سقف الكنيسة. وإذا خرجنا من قصر المنصور نجد بساتين في وسطها برّكة محاطة بتماثيل تمثّل مختلف الحيوّانات. وفي وسط البساتين كانت بركة تجري إليها المياه من شادروان ومن أفواه حيوانات من كلّ نوع. والشادروان هو لوحة من الرّخام المنقوش يجري عليها الماء هذا ما وصفه لنا ابن حمديس.

4. خاتمة

لقد ارتبط المجال بافريقيّة في الفترة الوسيطة بديناميكية التحرّك القبلي، لذا يصعب رسم حدود ثابتة له الا بشكل تقريبي، وان تمكنت المدينة من حصره داخل الأسوار الفاصلة بين المجال الريفي البدوي والفضاء الحضري، فإن هذا التقسيم على مستوى الواقع المعاش يفقد أسسه

---

[83] ابو عبيد القاسم بن سلام (1353هـ)، كتاب الاموال، تحقيق حامد الفقى، القاهرة، 46.

[84] الاستبصار، نفس المصدر، ص 129-130-131.

[85] ابن خلدون، (1959) العبر، ج 6، دار الكتاب اللبناني، ص 357.

النظرية فرغم اختلاف النمطين فانهما يرتبطان بشكل جذري على جميع الأنشطة الحياتيّة والعلاقات الاجتماعيّة وإن تأسيس بجاية كحاضرة في الغرب الإسلامي في فترة سيطرت فيها القبائل البربريّة وخاصة العربيّة الهلاليّة خير مثال على أن مفهوم البداوة المناقض لكلمة الحضر بعيد عن توصيفه لحقيقة التلاحم الموجود في المجال الجغرافي الذي تميز خلال فترة بحثنا ببروز مصطلح جديد هو الامارات المستقلّة أو المدن الدُويلات على شاكلة المدن الايطاليّة والاوروبيّة، وإن استقرّت القبائل وتوطّنت فإنّها تصبح قادرة على بناء المدن، وإن بجاية حسب الواقع الأثري والشواهد المصدريّة تجهّزت كمدينة اسلاميّة محدثة على أنقاض رومانيّة بيزنطيّة قديمة بجميع المعالم العمرانيّة جعلتها مشعة على مجال تجاوز افريقيّة وبلاد المغرب الى إشعاع متوسطي اقليمي.

5. قائمة المصادر والمراجع باللغة العربيّة

1. ابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، ت 630 هـ/1232 م، (1983)، الكامل في التاريخ، (9 أجزاء)، تحقيق علي شيري، بيروت، ج10.
2. أبو الفداء عماد الدين إسماعيل، (1840) تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية.
3. أبو عبيد القاسم بن سلام (1353هـ)، كتاب الاموال، تحقيق حامد الفقى، القاهرة.
4. ابن حزم أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد ت456 هـ/1063م، (1982)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام.
5. ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، دار الحياة، بدون تاريخ.
6. ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمان بن محمد ت 808 هـ / 1406 م، (1959)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (6 أجزاء)، بيروت.
7. ابن خلكان ابو العباس شمس الدين احمد، (1972)، وفيات الاعيان وابناء الزمان، حققه احسان عباس، 8اجزاء، دار صادر،بيروت، ج6.
8. ابن سعيد المغربي، (1970)، كتاب الجغرافيا، حققه إسماعيل العربي، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
9. ابن عذارى عبد الله بن محمد المراكشي ت بعد 712 هـ / 1312 م، (1948)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (4 أجزاء)، بيروت – لبنان، ج4.
10. ابن منظور، لسان العرب، ج3.
11. الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي، ت 560 هـ / 1166 م (1989)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق محمد الحاج صادق، بيروت.
12. إدريس الهادي روجي، (1992)، الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12 (جزآن)، تعريب حمادي الساحلي، بيروت.
13. البكري أبو عبيد بن عبد العزيز، ت 487 هـ / 1094 م، (1992) المسالك والممالك، (جزآن)، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، تونس.
14. بعيزيق صالح،(2006) بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس.
15. بوربية رشيد، (1977) الدولة الحمادية، تاريخها، وحضارتها، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر.
16. بوربية رشيد، (1983)، "أسوار المدن الاسلامية في العصر الوسيط" ترجمة عريب مختار، مجلة الجامعة، عدد 18، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
17. بويحياوي (2004) ، تطور العمران الاسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط، رسالة دكتورا، معهد الآثار جامعة الجزائر.
18. الحميري محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم التونسي، ت بعد 726 هـ / 1326م، (1984)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت .
19. حسن الوزان، (1984)، وصف افريقيا، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، طبعة2.
20. حسن محمد،(1999) المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي, (جزآن)، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس1.
21. دبيش لطفي، (1992)، المصطلح الجغرافي.

22. الزركشي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي، ت بعد 887 هـ / 1482م، (1998)، تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية، تحقيق الحسين اليعقوبي، تونس.
23. عبد الحميد زغلول (1990)، تاريخ المغرب العربي الفاطميون وبنو زيري والصنهاجيون الى قيام دولة المرابطين، ج3، منشأة المعارف الاسكندرية، مصر.
24. عبد الجبار ناجي، (2001)، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، ط 1، لبنان .
25. العبدري محمد البلنسي، (1968) الرحلة المغربية، تحقيق احمد بن جدو، مطبعة الجزائر.
26. العربي اسماعيل، (1980) دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
27. الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله (644 هـ/714هـ)، (1979) عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، حققّه وعلّق عليه عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثانية.
28. القاضي عياض بن موسي بن عياض السبتي (توفي سنة544هـ)، (1983)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، المملكة المغربية وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ج8.
29. القلقشندي أبو العباس احمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الانشى، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر، ج5.
30. الماروردي ابو الحسن(1298هـ)، الاحكام السلطانية، مطبعة الوطن، القاهرة.
31. مؤلف مجهول، ت في نهاية القرن السادس هجري / الثاني عشر ميلادي، (1985)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية.
32. النويري شهاب الدين، ت 733 هـ / 1332م، (1983) ، نهاية الأرب في فنون الأدب، (الجزء 24)، حقق حسين نصار وعبد العزيز الأهواني، القاهرة،.

6. قائمة المراجع باللغة الفرنسيّة

1. Bardet. G., (1941), *Problèmes d'Urbanisme*, Paris.
2. Bausani. A., (1975), « BAB », *E.I*, nouvelle édition G.-P. Maisonneuve et Larose S.A., Leiden E.J. Brill, Paris, T.1, pp. 853-858.
3. Bahri. F., (2001), "SBIBA entre deux Conquêtes à travers trois sites Islamiques de la conquête Musulmane au Ier-VII^{ème} siècle à l'Invasion Hilalienne au milieu du V^{ème}-XI^{ème} siècle", *Actes du Colloque de Sbeïtla,* pp.163-179.
4. Berque. J., (1970), " Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XV^{ème} siècles d'après un manuscrit jurisprudentiel", *Annales ESC*, n° 5, pp. 1325-1353.
5. Berque. J., (1970), « les Hilaliens repentis, ou l'Algérie rurale au XV^{ème} siècle », *Annales ESC*, 25/5, pp.1325-1353.;
6. Bourouiba. R., (25 mars-5 avril 1974), « La vie économique et les arts à Bidjiai la Hammadide », *Actes intégraux du 8e séminaire sur la pensée islamique, Bidjiai, II, s.l.,s.d.,* pp.7-15.
7. Bercher.L., (1922), « Le palais d'al-Mansour à Bougie », *R T,* 29, pp. 50-54.

8. Boissonnade. P., (1929), « Relations commerciales de la France méridionale avec l'Afrique du Nord ou Maghreb du XIIème au XVème siècle, étude d'histoire économique, *Bulletin de la société de géographie*, pp.1-37.
9. Belhamissi. M., (25 mars-5 avril 1974), « Le rôle de Bidjaia dans la Méditerranée aux époques hammadite, almohade et hafside », *Actes intégraux du 8e séminaire sur la pensée islamique, Bidjaia, II, s.l.,s.d.*,pp.67-79.
10. Bouzid. A., (1991-1992), *Catalogue des tribus berbère « Butre » au Maghreb d'après les sources arabes médiévales*, Diplôme de recherche approfondie, sous la direction de M.Chapoutot-Remadi, Tunis.
11. Bourouiba. R., (1983), Architecture militaire de l'Algérie médiévale, OPU, p.80.
12. Brunschvig. R., (1947), Urbanisme médiéval et droit musulman, *Revue des Etudes Islamiques*, Paris, pp. 127-155.
13. Cahen. C., (1968), "Note sur les Hilaliens et le Nomadisme" *JESHO,* T.XI, pp. 130-133.;
14. Idris. H.R., (1968), " l'invasion hilalienne et ses conséquences » *Cahiers de Civilisation Médiévale*, T.III, pp. 353-371.
15. Cahen, C., (1982) *Introduction à l'histoire du monde musulman médiéval : VIIe–XVe siècle*, Paris, Maisonneuve, et rééd., 216 p.
16. Colin, G.S., (1975), « AL-BARANIS *», E.I,* nouvelle édition G.-P. Maisonneuve et Larose S.A., Leiden E.J. Brill, Paris, T.1, p.1068
17. Colin .G.S., (1975), « Burj », *E.I,* T.1, Paris, p.1355.
18. Collectif., (2000), *Grandes villes méditerranéennes,* Ecole Francaie de Rome.
19. Daghfous.R., (1975) "De l'origine des Banu Hillel et des Banu Sulaym", *C.T.* T. XXIII, N°91-92, pp.41-68.
20. Dominique. V., (2006), *Bougie, port maghrébin*, 1067-1510, Rome, Publications de l'École Française de Rome, 795 p.
21. Debeylie. G.L, (1909), La Kalaa des Beni-Hammad, une capitale Berbère de l'Afrique du Nord au XIème siècle, Ernest Leroux, Paris.
22. Fantar .M.H, (1991), « de la cité antique à la cité arabo-islamique au maghreb », *Reppal VI*, INP.
23. Gardet. L., (1954), *La cité musulmane. Vie sociale et politique*, Paris.
24. Gaid. M., (1991), *Histoire de Béjaia et sa région depuis l'antiquité jusqu'à 1954*, réed Alger, Edition Minouni.
25. Ganot. H., (1910), *Histoire générale de Algeria*, P. Ccrescenzo, Alger.
26. Golvin. L., (1957), Le Maghreb Central à l'époque des Zirides, Edition Art et Métiers Graphiques, Paris.
27. Golvin, L., (1859), « Note sur les entrées en avant corps et en chicane dans l'architecture musulmane de l'Afrique du nord », Annales de l'institut d'études orientales, T. XVI.

28. Idris. H.R., (1962), *La berberie Orientale sous les Zirides X-XII*ème *siècle*, Libairie d'Amerique et d'Orient Adrien-Maisonneuve, Paris, T. 1, pp. 267-282.
29. Idris. H. R., (1968) "De la réalité de la Catastrophe Hilalienne", *Annales E.S.C*, pp. 390-396.
30. Lapidus. I.M, (1984), *Muslim cities in the later Middle Ages*, Cambridge University Press.
31. Lepelly. C., (1981), « Les cités de l'Afrique romaine au Bas-Empire », Paris, Etudes Augustines, Vol.II, pp.505-507.
32. Le Tourneau. R., (1957) *Les villes musulmanes de l'Afrique du Nord*, Alger.
33. Mahfoud. K., (2011), *L'Algérie des Algériens,* Alger, EDIF 2000.
34. MAHFOUDH. F., (2003), Architecture *et Urbanisme en Ifriqiya médiévale (Proposition pour une nouvelle approche),* Centre de Publication Universitaire, Faculté des Lettres de La Manouba.
35. Marcais. W., (Janvier -Mars 1918), *L'Islamisme et la vie urbaine*, comptes-rendus de l'académie des Inscriptions et belles Lettres, pp. 86-100.
36. Marcais. G., (1946), La conception des villes dans l'islam, *revue d'Alger*, Algérie, 1 vol.
37. Marcais. G., (1957), l'Urbanisme musulman*, Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman*, T1, pp. 220-331.
38. Marcais. G., (1957), *Algérie médiévale, monuments et paysages historiques*, Arts et Métiers Graphiques, Paris.
39. Marçais, G., (1975) « Bidjaya », *E.I*, nouvelle édition, Leyde, Brill, vol.I, p.1241.
40. Miquel. A., (1968), *L'islam et sa civilisation*, Armand Colin, Paris.
41. Mouloud. G., (1991), *Histoire de Béjaïa et de sa région : depuis l'antiquité jusqu'à 1954*, Alger, Éditions Mimouni, 2e éd.
42. Mumford. L, (1961), *The City in History : Its Origins, Its Transformations, and Its Prospects*, New York.
43. Poete. M., (1967) *Introduction à l'urbanisme : l'évolution des villes, la leçon de l'histoire, l'antiquité*, Paris.
44. Sourdel. J.D., (1968), *La civilisation de l'islam classique*, Paris, Arthaud.
45. Thebert.Y., (1986), "Permanences et mutations des espaces urbains dans les villes de l'Afrique du Nord orientale : De la cité antique à la cité médiévale" *C.T*, XXXIV, N° Spécial 137-138, pp. 31-46.
46. W.Meri. J., (2006) Medieval Islamic Civilization an Encyclopedia, published Routledge, New York.
47. Zahir. I., (2011) *Béjaïa à l'époque de sa splendeur (1060-1555),* Alger, Éditions Dahlab.